نبيُّ اللَّه صالح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٦١] ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أى تلقوا أوامركم ونواهيكم من اللَّه سبحانه وتعالى فى كل حركة من حركات الحياة. قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ﴾ أى أن اللَّه تعالى لم يرسل رسولا غريبا عليهم، بل هو أخوهم الذى يعرفونه ويعيشون معه. يعرفون حسن سلوكه وسيرته الطيبة وعقله الراجح، وهذا حتى لا يكون للناس حجة على اللَّه تعالى؛ لأنه لو جاءهم برجل غريب ربما قالوا: هذا رجل لا نعرفه، ولا نعرف صدقه أو كذبه أو سلوكه، ربما كان كذابًا أو لا أخلاق له، جاءنا يكذب علينا لتكون له السلطة الدنيوية.

الحق سبحانه وتعالى يبطل هذه الحجة تمامًا، بأن يأتيهم برسول منهم عاشوا معه ولم يعرفوا عنه كذبًا. بل عرفوا عنه الأمانة والصدق والإخلاص، لا يريد نفوذًا دنيويًا، ولم يسع إليه. فى هذه الحالة لا عذر لهم إذا كذبوه؛ لأنهم يعرفون كل شىءٍ عنه، وكل ما يعرفونه عنه يعطيهم الثقة الكاملة فيه. ماذا قال صالح؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ القوم يطلق عادة على الرجال ولكنه يشمل المرأة أيضا كما ذكرنا سابقاً.

وقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ الإنشاء هو الإيجاد من عدم وبدون واسطة، أنشأ أى أوجد وجود ابتداءٍ دون الاستعانة بأحد. الذى يخترع آلة لا نقول أنشأها؛ لأنه استعان بأشياء كثيرة كى يخترعها، استعان بالمادة، واستعان بما وصل إليه الذين من قبله من علم، واستعان بنتائج عقول الآخرين، ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] لماذا؟ لأنه وحده سبحانه وتعالى الذى يخلق بغير موجود وبغير مثال سابق، ودون الاستعانة بأحد، فهو وحده الموجِد من عدم. والمنشئ من عدم.

وقوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب هنا لقوم صالح وهؤلاء لم يشهدوا خلق الإنسان من الأرض؛ لأن آدم هو الذى خُلقَ من الأرض، ونحن ذريته.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ استعمركم.. ساعة أن ترى

الألف والسين والتاء. اعرف أنها للطلب، فاستخرج: يعنى طلب الإخراج، واستفهم يعنى طلب الفهم، واستعمر يعنى طلب التعمير.

وقوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: طلب منكم عمارتها. والتعمير ضد التخريب. وعمارة الأرض تقتضى:

أولا: أن يبقى الصالح على صلاحه، أو نزيده صلاحًا. ولقد كان الناس فى الماضى يشربون من الآبار، ولكن الآن صار الماء فى كل بيت.

الثانى: أن ننميها بما يناسب التكاثر الذى يوجد؛ لأن مايتكاثر بالاستقبال يقل بالمضىّ.

وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١] الاستغفار: طلب المغفرة من الذنوب التى وقعت، والتوبة: ألا تعود إلى هذه المعصية أبدًا. ولكنك تجد إنسانا يقول: أنا ذاهب للحج. والحج غفران للذنوب، أفلا أرتكب ذنبين أو ثلاثة ثم أحج فيغفر اللَّه لى، نقول هل أنت تضمن أن تعيش حتى تحج؟ لا تضمن، فحافظ على نفسك فإن الأجل ربما يأتى فجأة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] فمادمت استغفرت فقد سمعك لأنه قريب. ومادمت قد تبت فقد قبل توبتك لأنه مجيب.

الحق سبحانه وتعالى يقول وهو يروى لنا حوار الكفار مع صالح: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢] ﴿كُنتَ﴾ أى فى الزمن الماضى قبل أن تكلف بالرسالة. مرجوّاً من قبل، يعنى نأمل على يديك الخير. فما الذى جعلك تقول: اعبدوا اللَّه وحده. قد كنت تعين الضعيف وتعطى الفقير، وتملك كل خصال الخير قبل أن تنادى بأنه لا إله إلا اللَّه ولا عبودية إلا للَّه وحده.

ويمضون فى مجادلتهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢] أى أتقول لنا إن عبادة آبائنا للأصنام أو الشمس أو غيرها كانت خاطئة، وتطلب منا أن نتركها؟ ولو كان هؤلاء الناس يعقلون، لسألوا أنفسهم: هل الآلهة التى يعبدونها تأمرهم بشىء أو تنهاهم عن شىء؟ طبعًا لا. إذن فلا منهج لها. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢] والشك هو استواء الطرفين: الإثبات والنفى. إذن فهم ليسوا على يقين من آلهتهم والذى منعهم أن يكذبوا صالحًا تكذيبًا قاطعًا، أنهم قالوا: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢].

❁❁❁

كذبت ثمود المرسلين

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾ [الشعراء] هم كذبوا رسولهم صالح عليه السلام، ولكن الله وصفهم بتكذيب جميع الرسل؛ لأن الرسل جميعًا إنما يصدرون عن شيء واحد، هو سلامة العقيدة أولا. وهذه لا يختلف فيها رسول عن رسول، ولكن الاختلاف بين الرسل يكون فى المسائل البيئية والاجتماعية التى تناسب العصر والبيئات المختلفة، لكن أصل المنهج واحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال أيضًا: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

إذن.. هناك قدر مشترك فى كل الرسالات، هذا القدر المشترك: هو إيمان بإله له كل صفات الكمال المطلق، وأن هناك بعثًا ونشورًا وحسابًا..إلخ. هذه الأساسيات يتفق فيها كل الرسل. فإذا كذب قوم رسولهم فكأنهم كذبوا جميع الرسل. فثمود كذبوا المرسلين بتكذيبهم لنبيهم صالح عليه السلام، الذى دعاهم إلى تقوى الله تعالى فرفضوا ما جاءهم به من عند الله. مع أنه لم يطلب منهم أجرا على هدايتهم إلى منهج الحق، وقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥] يدل على أن هذا العمل فى عرف العقلاء يستحق الأجر عليه؛ لأنه يعمل لهم عملا يمد حياتهم بالسعادة إلى الآخرة.

ثم يقول تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾﴾ [الشعراء] الجنات معناها البساتين التى إذا دخلها الإنسان سترته لخصوبة أرضها ولارتفاع أشجارها، والجنات تحتاج دائمًا إلى الماء، والماء قال الله فيه ﴿وَعُيُونٍ﴾ تضمن بقاء الجنات واستمرار نموها، ثم يقول الحق عز وجل: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨] معلوم أن الجنات والزروع تشمل النخل وغيره، فلماذا ذكرت الآية النخل دون غيره من الزروع؟ لأن النخل شبهه رسول الله ﷺ بالمؤمن قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها[1]» فظن الصحابة أنه شجر البوادى. فلما خرج عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وكان مع الجالسين قال له ابنه عبد الله بن عمرَ وكان مع أبيه: يا أبى لقد وقع فى ظنى أنها النخلة. لأنها مثل

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٨١١/ ٦٣] عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما.

المؤمن كل ما فيها خير. جذعها يستعمل سوارى - أعمدة - وجريدها يسقف به وسعفها يستخدم فى أشغال الخوص، وليفها يستخدم فى عمل الحبال والمكانس وفائدتها الكبرى فى ثمار البلح التى تطرحها.

وهناك فائدة أخرى اكتشفها العلماء الأمريكان مؤخرًا وهى أنهم أخذوا جزءا من مؤخر جريد النخل الذى يسمى «قحفًا» ووضعوا هذا الجزء فى تربة مشابهة لتربة الأرض التى ينمو فيها النخل ثم سقوها بالماء بحساب، وكانت النتيجة أنها أنبتت نخلة جديدة!! والنبى ﷺ عندما قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها» كان على حق؛ لأن شجر النخل لا يسقط ورقه أبدًا حتى لو جف. وبعد ذلك يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الشعراء] المسرف هو الذى يتجاوز الحد، وتجاوز الحد له مراحل. اللّه تعالى حرم أشياء وأحل أشياء، وعمل لها حدودًا مرسومة. فالإسراف فيما شرع اللّه: هو أن تتجاوز الحد فى الحلال وتدخل فيه شيئًا من الحرام، أو تأتى بشىء من الحرام، وتدخل فيه شيئًا من الحلال.

قول الحق: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢] نفهم منه أن الأرض مخلوقة على جهة الصلاح فى كل شىء، يأتى الإنسان بتدخله فيفسد فيها، فاللّه تعالى خلق الأرض على هيئة الصلاح، ومادامت كذلك، فإياك أن تتدخل فى إفسادها؛ ولكن حركتك يجب إما أن تنمى الصالح إلى أصلح بطاقة اللّه المخلوقة لك، أو تتركها على حالها.

وبعد ذلك يقول الحق تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أى أجرى له سحرًا متواليًا عدة مرات، والذى فعل له السحر شخص آخر. إذا كان الأمر كذلك فإننا نسأل: من الذى سحره؟ هل هو منكم أم من أتباعه؟ إن كان الذى سحره منكم فإنكم تستطيعون معالجة الموقف وتفكون هذا السحر لتوقفوه على حقيقته، وإن كان الذى سحره من أتباعه، فهذا غير معقول ولا يصدقه أحد؛ لأن الأتباع فى الغالب يعينون صاحبهم ولا يفعلون ما يعوق حركته ومهمته. فإذن قولهم إنّه من المسحَّرين زعم باطل، معناه أنهم يوجهون للنبى اتهامًا بلا دليل لمجرد ألا يتبعوه ولا يؤمنوا به.

ثم تقول الآيات: ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] هم يستنكرون أن يكون الرسول بشرًا مثلهم.. وماذا كانوا يريدون؟. كانوا يريدون ملكا ينزل عليهم من السماء، وفى ذلك يقول اللّه عز وجل: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن

﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤] هب أن اللّه بعث إليهم ملكا رسولا. كيف يتعامل معهم. إن طبيعة خلق الملائكة تختلف عن طبيعة خلق بنى آدم. الملائكة مخلوقات نورانية لا يمكن رؤيتها بالعين. والإنسان مخلوق من طين يتجسد ويمكن رؤيته بالعين. ولو بعث اللّه رسلا من الملائكة لاستحال على بنى آدم رؤيتهم والتلقى عنهم.

❁❁❁

ناقة صالح عليه السلام

قال صالح لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٦٣] قوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أى: أخبرونى. كأنه ارتضاهم حكمًا، فقال لهم أخبرونى إذا كنت أنا على بينة من ربى، ويقين أنه أرسلنى وأيدنى. وأنا إن خدعت الناس كلهم لا أخدع نفسى. وقوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أى أن ربى أكرمنى باليقين. فماذا تطلبون منى! أن أترك يقين ربى وأستمع لكفركم؟ وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ التى هى المنهج والنبوة والرسالة.

وقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٣] عندما تجىء الآيات فى القرآن الكريم على صيغة الاستفهام ليس معناه أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يستفهم عن شىء، ولكن اللّه جل جلاله واثق بأنهم لن يجدوا إجابة إلا ما يريدهم أن يقولوه ويعترفوا به لكى يكونوا شهداء على أنفسهم.

وقول اللّه عز وجل: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أى: إن أنا رضيت حكمكم، فقولوا لى من الذى يمكن أن ينجينى من اللّه سبحانه وتعالى إن عصيته؟ أى قولوا لى أين أذهب إن عصيت اللّه؟ وكيف أتجنب عذابه، وأنا راض بحكمكم، والجواب الحتمى هنا: يكون لا أحد؛ لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفلت من حساب اللّه. أنتم تقولون إنكم تشكون فيما أبلغكم به، وأنا أقول إننى على يقين فإن أطعتكم وعصيت اللّه، فلا أزيد إلا خسارا، أى فما تزيدوننى غير تخسير. وقوله تعالى: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ ما هو التخسير؟ إن الخسارة ضد المكسب، ومعنى الخسارة أن ينقص رأس المال. ومعنى المكسب أن المال يزداد، إن أنا وافقتكم على ما تريدون، فسأخسر كل شىء، الدنيا والآخرة. أى أننى لن أزيد بطاعتكم إلا خسارة.

حينئذ وبعد أن وصل الحوار إلى هذه النقطة. كان لابد أن تأتى معجزة

ليعرف هؤلاء الكفار أن صالحًا مرسل من ربه. وأن المنهج الذى يبلغه هو منهج اللَّه سبحانه وتعالى.

وقال صالح لقومه كما جاء فى الذكر الحكيم: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [هود: ٦٤] حينما يقال هذه ناقة اللَّه. فهذا دليل على أنهم طلبوا من صالح معجزة، وأن اللَّه تعالى استجاب لرسوله. وأعطاه المعجزة التى طلبوها. إنهم قالوا: إن كنت رسولا حقًا، فأتِ لنا من هذه الصخرة بناقة. وسبب طلبهم الناقة من الصخرة، أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا. فقالوا له: نريد أن تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة. هم اقترحوا الآية، واللَّه سبحانه وتعالى أجابهم، فانفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة. والناقة حامل على وفق ما طلبوها. لم يكن فى استطاعتهم فى هذه الحالة أن يكذبوا الآية التى حدثت أمامهم؛ لأنها رؤية عين ورؤية يقين، فهم لا يستطيعون التكذيب لما حدث أمامهم.

ولكنهم عقروها ظناً منهم أن هذا إبطال للمعجزة؛ لأن الناقة بعد أن عقروها لن تستطيع السير، فيقولون: هذه آية باطلة.

وكان من الممكن أن تخرج شجرة من الصخرة فيكون هذا إعجازًا. ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يخرج نباتًا من الصخرة، بل أخرج حيوانًا، ناقة تحمل فى بطنها جنينًا، ومادامت معجزة طلبتموها فحققها اللَّه لكم، وجعلها مشهودة منكم، فحافظوا عليها، لا تتعرضوا لها حين تشرب وحين تأكل، اتركوها. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦١] فهى ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ اتركوها ترعى فى أرض اللَّه وتأكل من خير اللَّه وحافظوا عليها، ولا تمسوها بسوء؛ لأنكم إن فعلتم ذلك فسيأتيكم عذاب اللَّه وسيكون قريبًا.

وكان صالح عليه السلام قد طلب من قومه أن يتقوا اللَّه، وأنذرهم عذابه وبشرهم برحمته، وكل هذا مفهوم من السياق. ماذا قال صالح؟ قال لهم: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] أى: هى تشرب يوما وإبلكم يوما، فوافقوا على ذلك. وكانت المياه فى مدائن صالح قليلة، فكانت ناقة اللَّه إذا شربت أخذت كل كميات المياه التى فى الآبار وأعطتهم كمية هائلة من اللبن، فتأتى إبل غير المؤمنين لتشرب فلا تجد ماء، أما المؤمنون فقد كان لبن الناقة يكفيهم جميعًا ويزيد بحيث لا يحتاجون إلى شىء. وكانت هناك امرأتان لهما إبل، فلم تجدا لها

ماءً؛ لأن المياه فى الآبار قلَّتْ جدًا، فذهبتا إلى رجل اسمه أحيمر ثمود وأغريتاه على قتل الناقة فقتلها - فلما قتلت الناقة صعد فصيلها على صخرة تسمى القارة ورغا ثلاثة أصوات. فقال صالح: يا قوم أدركوا هذا الفصيل لعل اللَّه تعالى يرفع عنكم العذاب فذهبوا يبحثون عن الفصيل فلم يجدوه، حينئذ أبلغ اللَّه تعالى صالحًا أن العذاب سيأتى بعد ثلاثة أيام. . أول يوم يرون سحابة مصفرة والثانى محمرة والثالث مسودة ثم يأتيهم العذاب.

❁❁❁

المؤامرة على نبىِّ اللَّه صالح عليه السلام

قال تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩] انظروا الوقاحةَ وقلة العقل والسفاهة، يبيتون لقتل نبى اللَّه صالح ويقسمون باللَّه ويتعاهدون مع بعضهم على فعل هذه الجريمة النكراء، فهم يتقاسمون باللَّه على قتل رسول اللَّه، هذا مما يدل على غبائهم ووقاحتهم، وأنهم ليس عندهم ذرة عقل حتى ولو فى خدمة ضلالهم. ومعنى ﴿تَقَاسَمُوا﴾ أى قالوا لبعضهم: هيا نحلف باللَّه أن نبيت لهذا الرجل ونقتله حتى نتخلص منه ومن دعوته. ومعنى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ المبيت هو ما يقطعك عن الحركة، ثم تعود فتبيت الليلة وتصبح فى الصباح لتواصل عمل يوم جديد، ولكن قولهم هنا: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ يقصدون من ذلك أن يعدوا له بياتًا لا يقوم منه، فلا يخرج عليه صباح بعده أبدًا، وذلك بأن يقتلوه. وحينما يقتلونه لابد أن له أهلا وأقارب سينتقمون ممن قتله. ولذلك احتاط الكفار لهذا الأمر بأنهم سيقولون لأقاربه وأولياء الدم: إنهم لا يعرفون شيئًا عن هذا الأمر وليس لديهم فكرة عنه، هم دبروا ذلك وفهموا أن اللَّه تعالى يسلم نبيه ويتركه لهم ليقتلوه ثم يتنصلوا من جريمتهم؛ ولكن اللَّه تعالى كان لهم بالمرصاد.

ولكن ماذا كانت نتيجة مكرهم؟ قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١] فكيف حدث ذلك؟ الكفار رصدوا تحركات صالح عليه السلام وعرفوا المكان الذى يبيت فيه ودخلوا عليه، فساعة دخلوا عليه ليفعلوا فعلتهم؛ استقبل كل واحد منهم حجرا لا يعرف من الذى رماه، كأن اللَّه تعالى سخر ملائكة يضرب كل واحد منهم واحدًا من الكفار فهلكوا جميعًا، ونجا النبى ومن معه. أو أن اللَّه صنع له حيلة خرج بها، وقالوا: إنه ذهب

إلى حضرموت، ولما ذهب إلى هناك مات، فسموها حضرموت من أجل ذلك. وقال بعض العلماء: إن الرهط ذهبوا لينتظروا صالحًا فى مكان، وجاءوا فى سفح جبل واختبئوا فيه حتى يمر صالح، فبينما هم يجلسون فى هذا المكان أسقط الله عليهم صخرة قضت عليهم. المهم هلكوا ودمروا سواء كان ذلك بالملائكة التى رمتهم بالحجارة، أو بنجاته منهم إلى حضرموت، أو بوقوع الصخرة عليهم، فكل هذه جنود الله تعالى، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

فهم أرادوا أن يهلكوه هو وأهله، فأهلكهم الله هم وقومهم أجمعين، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل]، والدليل على هلاكهم أنه لم يبق منهم أحد، وأصبحت بيوتهم خاوية لا أحد فيها.

❁❁❁

فى انتظار العذاب

أعطى الله تعالى ثمود العظات كلها، لقد أرادوا آية، فجاءتهم ناقة الله تحمل جنينها فى بطنها، كما طلبوا تماما. وكانت معجزة مشهودة.. وأمرهم ألا يتعرضوا لها أو يمسوها بسوء، وإلا أتاهم العذاب من الله سبحانه وتعالى. فالحق جل جلاله حين يطلب منه الكفار آية، ويحققها مشهودة لهم. ولا يؤمنون بها، يحق عليهم العذاب، فماذا فعلت ثمود؟ وجدوا الناقة تأكل من زرع الكفار فتمسحه مسحًا، وتأتى لزرع المؤمنين فلا تقربه، وإذا شربت كمية من الماء، شربت بحيث لم يبق فى الآبار إلا اليسير، فإذا ما أتوا ليرووا فى اليوم الثانى لم يجدوا ماء، ويأتى اليوم الثالث فتمتلئ الآبار بالماء. فقد حدد الله سبحانه وتعالى أن للناقة شرب يوم، ولهم شرب يوم.. فلما لم يستطيعوا الاحتمال فعقروها أنذروا بعذاب الله.

واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] عندما عقروا الناقة قال لهم صالح: تمتعوا ثلاثة أيام لن يمسكم فيها شىء، ثم يأتى وعد الله بالعذاب فى اليوم الرابع، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٦٦] ولم يقل فلما جاءت الصاعقة أو الصيحة، بل جاء الأمر من الله تعالى بالعذاب، وهو أمر واقع لا محالة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى له الأمر كله. يقول للشىء كن فيكون. والحق سبحانه وتعالى قال: ﴿فَلَمَّا

﴿جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦] الفاعل واحد. هو اللّه سبحانه وتعالى، والآمر واحد. فكيف ينجو المؤمنون ويهلك الكافرون؟ هذه هى عظمة الخالق سبحانه وتعالى، يبطل طبائع الأشياء أو يمضيها. وهكذا كانت الصيحة أو الريح أو الرجفة. القوم كلهم موجودون فى مكان واحد، كافرهم ومؤمنهم. تأتى الصيحة فيهلك الكافر وبجواره المؤمن لا يحدث له شىء؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى هو الآمر لكل خلقه. ويسأل بعض الناس إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قرر إهلاكهم، فلماذا الإمهال ثلاثة أيام، نقول: إن العذاب إذا جاء انقطع الألم الحسي؛ لأن الإنسان يموت وعند موته ينقطع الألم. واللّه تبارك وتعالى يريد أن يعيشوا ثلاثة أيام ليعانوا قرب تنفيذ الوعيد. الذى قال اللّه سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فى دياركم؛ معناه أنها ديار متعددة، فكأن الذين كفروا كانوا فى أكثر من مكان، بل إن المسافرين منهم لحقهم عذاب اللّه وتتبعهم حيثما كانوا، فكأن العذاب نزل على الديار وعلى الذين كانوا خارج الديار، ولم ينج من العذاب إلا شخص واحد اسمه. «أبو رغال»، كان يحج بيت اللّه الحرام، ولذلك ظل الحجر الذى سيُضرب به أو الصيحة التى ستودى بحياته إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه، فكل الكفار أهلكوا إلا هذا الرجل، ظل العذاب ينتظره حتى خرج من بيت اللّه الحرام فوقع عليه الحجر.

❁❁❁

بماذا أهلك اللّه عز وجل ثمود؟

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أى حين جاءت الرجفة أخذت كلا منهم على الحالة التى كان عليها، فالذى كان واقفًا ظل على وقوفه، والذى كان قاعدًا ظل على قعوده، والذى كان نائمًا ظل على نومه، أخذوا جميعًا على هيئاتهم. مع أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن صالحًا كلمهم بعد أن أخذتهم الرجفة وعاتبهم وقال لهم إنى نصحتكم، فكيف كلمهم وهم أموات؟ الميت يسمع كلام الحى، ورسول اللّه ﷺ خاطب القتلى من كفار بدر، وقال لهم: «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟. قال المسلمون: يا رسول اللّه أتكلمهم وقد جيفوا؟

أى أصبحوا جيفة. قال رسول اللّه ﷺ: واللّه ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا [١]». وهكذا كان صالح يخاطب قومه بعد أن أخذتهم الرجفة فيقول لهم: لقد أبلغتكم رسالة اللّه ونصحتكم ولكنكم لم تقبلوا نصحى.

هؤلاء هم ثمود قوم صالح، أخذتهم الرجفة أى الهزة التى تحدث رجة فى المهزوز. ويعطى لنا القرآن الكريم صورًا مختلفة لتأديب اللّه لثمود، فمرة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ومرة يقول: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] ومرة يقول: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] وسماها فى سورة أخرى «الصاعقة» فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] والرجفة والطاغية والصيحة والصاعقة كلها تؤدى معنى الحدث.. وهو عذاب يفاجئهم ولا يمكنهم النجاة منه.

على أننا لابد أن نتنبه إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وكان القياس السطحى يقتضى القول: وأخذت الذين ظلموا الصيحة، ولكن الذى يتكلم هو اللّه تعالى الذين يقولون كان لابد أن تكون أخذت بالتأنيث نقول لهم: إن الصيحة ليس معناها أنها حدثت مرة واحدة؛ لأن التاء هنا تستخدم عندما تكون حدثت مرة واحدة، ولكنها صياح وليس صيحة. والصياح فيه عزيمة الرجولة. ولكن أراد اللّه سبحانه وتعالى أن يجمع الأمرين تكون صيحة وقوة. ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ولم يقل أخذت؛ لأنها حدثت مرات متعددة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أى ملقين على ركبهم وجباههم هامدين بلا حراك، وقوله سبحانه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [هود: ٦٨] مادة غنى كلها سواء، غنى وغنىّ وغناء كلها تؤدى نفس المعنى. واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] ﴿تَغْنَ﴾ يعنى أنها لم تكن موجودة بالأمس. إذن.. فالمغنى معناه الوجود وضده العدم.

وقوله تعالى فى الآية الكريمة: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]. أى: كأنهم لم يقيموا فيها، بمعنى: كأنها أصبحت خالية ولم تكن مليئة بالحياة منذ ساعات.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨] هذه حيثية إهلاكهم

---

(١) أخرجه مسلم [٢٨٧٤/ ٧٧] عن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه.

بالصاعقة وهم لعنوا فى الدنيا والآخرة، وقد قلنا: إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا بشاعة جريمتهم حتى نعرف أن القصاص عدل ومناسب لبشاعة الجريمة.

وقوله تعالى: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ عادةً يقال كفروا بربهم، ولكن الحق تبارك وتعالى قال: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى أن هناك فرقًا بين المعنيين.. كفروا، أى ستروا وجوده وأنكروه، وكفروا بربهم أى لم يؤمنوا به مع اعترافهم بأنه موجود، هذا هو الفرق، وعندما نرى الذنب الكبير الذى ارتكبوه نعرف أن إهلاكهم كان عدلا، ونقول كما قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

obeikandl.com